

المحاضرة رقم 3: السيرة الذاتية في التراث العربي

يعتبر الحديث عن السيرة في مجملها في التراث العربي أولاً هو بمثابة تحقيق في أولية مصدر هذه السيرة وأد قلنا الحديث في هذه الصفحة سيكون عن صنف السيرة الغيرية و الذاتية ولكن للتفصيل والتوصيح أكثر فإن التركيز هو عن السيرة الذاتية في التراث العربي، وعليه إذا تعلق الأمر بالسيرة الغيرية وجودها فهي مثبتة الوجود والحضور في تراثنا العربي لحاجة الانسان إليها آنذاك من أجل التعريف والترسيخ لبعض الشخصيات المهمة من أجل تحقيق غايات مهمة وبأيسر الطرق .

أما السؤال الذي يتبادر الى ذهننا هو هل السيرة الذاتية كانت موجودة في التراث العربي؟ أو بمعنى آخر هل كان للسيرة الذاتية مكانة في ثقافتنا وموروثنا العربي القديم؟ أم أن ميزة هذا الفن الذي يعد فن له من الخصوصية التي جعلته مصدر اختيار من الشخص نفسه هل يبوح بمكنونات أسرارته وفق اعترافات تكشف الستار عن بعض الأمور الغامضة في حياته وعليه يتحول هذا الصنف من السير الى فن مسكوت عنه؟

وحتى تكون لنا كوة واضحة المعالم على هذا الفضاء المتعلق بالسيرة الذاتية في تراثنا العربي لابد من توضيح معالم هذا الفن وتخصيصه بالدراسة من أجل الالمام بكل جوانبه حتى يتسنى لناولوج الى حيثيات السيرة الذاتية وتميزها وفصلها عن بقية الأجناس الأدبية التي ظهرت آنذاك وذلك يتم وفق تحديد الأطر العامة لهذا الأدب حتى تتضح صورة هذا النوع ومراحل تشكله حتى تكون دراسته دراسة واقعية وموضوعية دقيقة.

بالرغم من تضارب الآراء حول تواجد السيرة الذاتية في التراث العربي القديم إلا أن الكفة في ذنبه أمام آراء الغرب الذين يقرون أن هذا الجنس السير ذاتي هو غربي بالدرجة الأولى يؤكد هذا الكلام شوقي ضيف في أسبقية السيرة الذاتية في التراث الغربي ، لكن الحقيقة تؤكد من قبل الباحثين العرب عن مدى أسبقية هذا الفن وتواجده في التراث العربي القديم ، لكن مع مرور الزمن وفي أواسط القرن العشرين تغيرت نظرة أن السيرة الذاتية هي حكر على الحضارة الغربية وهذا جاء في مضامين النقد الغربي و حتى نؤكد صحة الآراء المتضاربة حول أسبقية السيرة الذاتية في التراث العربي القديم أو الغربي لابد من أن نتوقف عند بعض الأقوال بالشرح والتحليل:

أولاً : فقضية ضبط المصطلح إذ «لم تتخذ السيرة الذاتية مصطلحاً خاصاً بها في الأدب العربي القديم، كما لم تستقلّ الكتابات الذاتية بكتب خاصة بها قبل القرن الخامس الهجري» (1). ومعنى هذا أن الاتفاق على وضع مصطلح علمي للسيرة الذاتية لم يتم الوصول الى هذه الخطوة المهمة في التنظير لها لكن كمفهوم وجدت في تراثنا العربي القديم والدليل على ذلك غياب كتب تناولت فن السيرة الذاتية كمصطلح متفق عليه له قواعد وأسس في التراث العربي القديم.

ومن أقدم الشواهد الأدبية التراثية على وجود السيرة الذاتية في التراث العربي القديم وهي ما جاء به "المؤيد" (ت470هـ) خلال فترة القرن الخامس الهجري وما سجله عن أحد الدعاة الفاطميين في كتاب موسوم بسيرة **المؤيد داعي الدعاة** أو **الكتاب الديوان "المؤيد في الدين داعي الدعاة** وهو كتاب حققه محمد كامل حسين يعد كتاب وهم في تاريخ الاتجاهات العقلية و التيارات الفلسفية التي كانت تسود العالم الإسلامي فترة القرن الخامس الهجري وهذا الكتاب يقول فيه أنه عند كتابته لهذا الديوان فقد ساعده المؤيد نفسه لكتابة حياته بالتفصيل لأنه عندما يكتب أي قصيدة على الطريقة الفارسية ففي آخر كل قصيدة كان يختار لنفسه اسما أو لقب ويكتبه في الأخير ، كما ذكر أن المؤيد نفسه كتب عن نفسه في كتابة الموسوم بالسيرة المؤيدية و الاختلاف في كتابة المؤيد للديوان والسيرة المؤيدية أنه في السيرة كتب نثرا فحين كتب في الديوان بالشعر

كذلك مثال آخر للعلامة الفيلسوف ابن سينا أن المتوفي سنة (428هـ): "قد ترجم لنفسه ترجمة اعتمد عليها تلميذه أبي عبيد الجوزجاني حين ترجم له (2). وهذا التلميذ المصاحب لابن سينا في كل مجالسه العلمية

كذلك مثال آخر لسيرة ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) في كتابه "طوق الحمامة الذي يقول فيه الناقد الفذ إحسان عباس: "ولم يكتب أحد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة، والاعتراف وبعض التعمق النفسي، مثلما فعل ابن حزم الأندلسي" (3).
ونذكر من تراجم الفلاسفة كذلك:

رسالة أبي حيان التوحيدي (ت114هـ) المسماة **"الصدّاقة والصديق"** والتي تحدث فيها صاحبها عن شعور الاغتراب وهو في مجتمعه.

و"السيوطي" المؤرخ المتوفي سنة (911هـ) في كتابه **"حسن المحاضرة"** وهذا التنوع والثراء في مصادر الكتب العربية التراثية لدليل قاطع على وجود السيرة الذاتية قديم.

كما لا ننسى الجاحظ 868هـ وما تخلل كتاباته بعض القفزات على رصد بعض جوانب حياته سواء تعلق الأمر به او بمجتمعه وهذا إن دل على شيء أنما يدل على أن السيرة الذاتية قد سبقت العصر العباسي وذلك في تحقيقات المستشرق كارل بروكلمان الذي يؤكد على البدايات الأولى لهذا الفن وهي ما قبل الإسلام قائلا: **كان عرب الجاهلية يفخرون بذكر مآثر أسلافهم وأيامهم، وأنسابهم، وكان سمرهم يجري على رواية أيامهم** (4).

وخلاصة القول هذه الأمثلة دليل على احتواء التراث العربي القديم للسيرة الذاتية بالرغم من شتات مفهوماها و ضبابيته ، أما عدم وجود سير ذاتية صريحة في نظر بعض النقاد العرب الذين كانت لهم نظرة أخرى في هذا الموضوع فسبب القصور هو اختلاف العادات والثقافات وتغييبها بسبب عوامل كثيرة منعت من ظهورها مثلا توخي الحذر في الكتابة الذاتية إذ هي بمثابة الوسيلة الوحيدة التي تمكن الكاتب عن نفسه من اعتماد الذاتية

2-محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، ص 24-25.

3- ينظر: إحسان عباس: فن السيرة بين الذاتية والغيرية، ص139-140.

4-كارل بروكلمان: ما صنف العرب من أموال أنفسهم، ج 1 (المنتقى من دراسات المشرقيين)، تر: صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1995، ص3.

المثالية و هي عدم ابراز الجوانب السلبية في الشخصية أو بمعنى آخر نقل صورة مشرفة و مشرقة مهما اتسمت به الشخصية من سلبيات و يؤكد هذا الناقد : يحيى إبراهيم عبد الدايم إذ يقول: ومن الملامح البارزة في التراجم الذاتية في التراث العربي، أنّ مجموعة منها تهدف إلى المثالية الروحية، ولذلك فإنّها تقدّم النمط التهذيبي حثّاً على القدوة والاحتذاء⁽⁵⁾ ويمكن تقسيم الموروث الأوتوبيوغرافي العربي من حيث الغاية إلى:

1_ **الصنف الإخباري:** هي اخبار الكاتب عن شخصيته مثل أخبار الجاحظ والتوحيدي مثل المذكرات .

2- **صنف يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير:** ومن أمثلتها سيرة ابن خلدون...

3_ **تصوير جانب من الصراع الروحي:** مثل سيرة ابن الهيثم، وواضح في سيرة "المنقذ من الضلال" للغزالي، الذي يصوّر جانباً من أزمة روحية تعرّض لها الغزالي.

د- **صنف يقصّ قصة المغامرات في الحياة:**

5- محمد الداوي: الحقيقة المكتسبة، قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، شركة النشر والتوزيع المدارس، 1428، ط1، ص24.